ولقد فحص لمبروزو كثيرين من فوضويي شيكاغو وسواهم فزعم ان حالة الفوضوي المجاهد حالة عجز وسقام وما ظهورهُ بمظهر الجسارة والمفاداة سوى من « وثبات » الضعفاء المنهوّرين . فمنهم المبتلون بالامراض المزمنة . ومنهم ذوو العريكة الخشنة الوعرة التي يعتاص عليها التطبع بطبائع الوسط . ومنهم ذوو الجمود الاخلاقي غير الشاعرين بهمس الضمير ودبيب الوجدان. ومنهم الجاني حبًا بالجناية كالفوضوي الالماني موست الذي يرى فيهِ لمبروزو المذكور احط اشكال الجناة. ومنهم اهل الباطنية والروحانية واهل الوحي والرفعة مثل باكونين وكروبتكن . ومنهم الفدائي المقتنع بانهُ انما يضحي بنفسهِ خدمة لبني الانسان

وليفسحوا مجال الدخول الى الفردوس الموعود تراهم يكردسون الجثث على الجثث ويجندلون الصريع فوق الصريع

ان الفوضوية . مذهب محزن مروّع وهو على حداثة نشأتهِ ذو تاريخ مضرّج بالدماء (ي)

مدنية أوربا وحكوماتها

لنفرض ان الامم بفطرتها شريرة فاذا تركت لنفسها بدون وازع يزع او رادع يردع اكل الناس بعضهم بعضاً . وانها جاهلة فاذا تركت لنفسها لم تعرف الخير من الشر او الحسن من القبيح او النافع من الضار . وانها خاملة فاذا تركت لنفسها اطمأنت الى القعود بل رجعت الى الوراء وصارت الى التدني والانحطاط ورضيت من دهرها بالنصيب الاخس . ولنفرض ان الحكومات ليست من الامم بل هي من سلالة الالهة كما كان يزعم القدماء بل ان كثيرين من ملوك هذا العصر ومنهم امبراطور المانيا كانوا يقولون انهم تناولوا التاج من الله وانهم ظل الله على الارض. ولنفرض ان هذه الحكومات انما هبطت الى الارض لتمنع الشر وتدعو الى الخير وتقود الامم في سبيل التقدم والارتقاء . اذا فرضنا كل ذلك فكم يجب ان يتعاقب على الانسانية من الاجيال حتى تدجن وتتأنس وتتعلم وتتهذب وتصير قادرة على ان تفكر بعقولها وتنظر بعيونها وتسمع باذانها وتستقل بنفسها وتمشي في سبيلها بدون وصاية احد

كل قاصر لا بد ان يدرك يوماً من الايام سن الرشد فيخرج من ولاية وصيهِ. اما آن لامة من امم هذه الارض ان تدرك سن الرشد. اذا كان الوصيّ للقاصر دماغهُ المفكر وعينهُ الناظرة واذنهُ السامعة ويدهُ العاملة وقدمهُ الساعية فمتى يتمرن هذا القاصر على ان يكون رجلاً. لا يستغني القاصر عن عناية وصيهِ حين يكون طفلاً ولكن اذا ترعرع هذا الطفل وارتفع قليلا عن سن الحداثة فيجب ان يترك لنفسهِ شيئاً فشيئاً وان تقل العناية بهِ تدريجاً ليتسنى لهُ ان يتمرن على الحياة والاَّ فقد يبلغ هذا الطفل مبالغ الرجال وهو لا يزال بمنزلة الاطفال

يقولون وكنا نعتقد ان اوربا قد بلغت الذروة العليا من الرقيّ والكمال وانها المثل الاعلى لكل امم الارض. اذا صح ذلك افاكان يجب ان تكون امم اوربا اقلّ الامم حاجة الى حكومات تكون منها بمنزلة الوصي من القاصر وان يكون تدخل حكوماتها في شؤونها محدوداً وان يقلّ شيئاً فشيئاً الى ان يستغني عن تلك الحكومات او تصبح اعضاء اثرية لا عمل لها. ولكن الذي نراهُ ان حكومات اوربا اكثر الحكومات تدخلاً في شؤون امهما ولا تزيدها الايام الاَّ توسعاً في التحكم بامها والتصرف بشؤونها ومرافقها كأن امم اوربا على ما تدعيهِ من الرقيّ والتمدن لا تزال في نظر حكوماتها قاصرة لا غنى لها عن وصي يدبر امرها بل لا تزال شريرة جاهلة خاملة لا يؤمن شرها ولا يرجى خيرها فلا بد لها من حكومة منظمة قوية تتدخل في كل شيء وتتعرض لكل شيء وتقودها الى الجنة بالسلاسل مما يصح معهُ القول ان مدنية اوربا مدنية حكومات لا مدنية امم وبعبارة اخرى انها مدنية وسائط لا مدنية مبادىء. ومعنى ذلك اذا انتشر الامن في اوربا فليس ذلك لان الاوربيين يحافظون على الامن من تلقاء انفسهم ولكن لان هناك حكومات تمنع الاخلال بالامن. واذا انتشر العدل في اوربا فليس لان الاوربيين ميالون الى العدل من تلقاء انفسهم ولكن لان هناك حكومات تمنعهم من الخروج الى العدل

يقولون لا رشوة في بلادنا لان عمال الحكومة يتقاضون اجراً كبيراً لا يحتاجون معهُ الى اخذ رشوات. اي فضل لكم في ذلك؟ اذا امتنع العامل عن الرشوة فيجب ان يكون ذلك عن مبدإ لا لان اجرهُ يكفيهِ والاَّ ففي اول فرصة يشعر او يتوهم او يوسوس لهُ الشيطان الرجيم ان اجرهُ لا يكفيهِ لا يتأخر عن

ان يعد يده الى الرشوة لا يكون ارقى رقيًّا الا اذا كان عن مبدأ والا فهو ظاهر مموه وباطن مشوّه . الوسائط قد تضمن الامن والعدل ولكن لا تجعل الامن والعدل خلقة في النفوس . اذا كانت اوربا كذلك الى اليوم وحكوماتها ارقى انواع الحكومات كما تدعي فهل يصح ان يقال انها المثل الاعلى في المدنية والرقيّ نحن بين امرين

اما ان نسلم ان حكومات اوربا على شكلها الحاضر لا تصلح ان تكون اداة اصلاح واما ان نعترف ان امم اوربا وقد تعاقبت عليها الاجيال وحكوماتها ارقى انواع الحكومات انها غير قابلة للاصلاح . فيقال ان امم اوربا سيئة الخلق رديئة الفطرة شرهة شرسة محتالة كذابة الى آخر ما هنالك من الصفات مما اضطر الحكومات ان يكون لها جيش جرار لجب من البوليس المنظم المدرب من فرسان ومشاة يتجول في الشوارع ليل نهار لكل خمسين متراً بوليسان ولا يدخل في ذلك الجيش الا كل طوّال عملاق متين الاعصاب موثق الآراب عداه وثاب مصارع ملاكم مباطش يحسن استعمال السلاح وتسلق الحبال والسواري لمنع الشر وهيهات ان يمنعه . وانها لا تعرف الشرائط الصحية فجعلت الحكومة تتخذ التدابير والاحتياطات اللازمة لمنع تفشي الامراض والاوبئة كتكنس الطرق وتعلق الاعلانات في كل محل . لا تبصق . لا تدخن . اقتل الذباب . اتق القمل والبراغيث والبعوض . لا تشرب الماء غير مصفى . لا تأكل الفجل غير مغسول . وانها فاسدة الذوق لا تعرف التنظيم والترتيب فجعلت الحكومة لتقوّم ذوقها وتخطط لها المدن والطرق وتضع لها رسوماً للابنية . وانها لا تعرف قيمة العلم فجعلت الحكومة لتؤسس لها المدارس وتجبرها على دفع رسومها وارسال اولادها اليها . بل جعلت الحكومة لتراقب الاوزان والمقاييس والمكاييل وتمنع العربات من الازدحام في الطرق . والاطباء والصيادلة الدجالين من غش الناس . والآباء من اهتضام حقوق ابنائهم . والاخ من اغتصاب حق اخيه والجار من الاعتداء على جاره . والقوي من اكل الضعيف . والغني من الاستبداد بالفقير . بل جعلت الحكومة لتراقب المطبوعات ومعاهد التمثيل والصور المتحركة والتماثيل في شبابيك المخازن ومحال القهوة والحانات والمطاعم والمعامل . بل بلغ عدم ثقة الحكومات بامم انها تعلق الاعلانات في المرتفعات والمنحدرات وافواه الطرق ومعاطفها . تمهّل . انتبه

للخطر . كأنها تقول لكم عيون ولا تبصر . بل انها تذكي العيون والجواسيس ليحصوا على الناس انفاسهم . بل الحكومة نفسها صارت الى حال لا تثق فيها بنفسها فاقامت المفتشين من بعضها على بعض

كل انسان شريف وحر وصادق ومفكر وسامع ومبصر الاّ امام الحكومة. وقد الف الناس ذلك فلم يعودوا يعبأون به أو يتأثرون لهُ . اذا قال الواحد للثاني لا تبصق عندها اهانة كبيرة واما الحكومات فانها تعلق الاعلانات بذلك في الترامات والسكك الحديدية بل في كل محل كأنها تقول للجميع « كلكم بصاقون » فيقرأها الكبير والصغير والمتعلم والجاهل فيمسح كل واحد الاهانة بجلده ويسكت. اذا قلت لاصغر تاجر أرني اوزانك او مقاييسك او مكاييلك عد ذلك منك اكبر اهانة لهُ واما الحكومة فتدخل المخازن والحوانيت والدكاكين وتفحص كل شيء ولا يستنكر ذلك احد . اذا قلت لاخيك او ولدك لا تقرأ الكتاب الفلاني عدّ ذلك منك تعدياً على حريته واستصغاراً لشأنه ولكن الحكومة تفتش المطبوعات فتجيز او تمنع منها ما تريد والامة صاغرة لا تبدي ولا تعيد . او اذا قلت لجارك تم في الساعة العاشرة زجرك بل ربما طلبك للبراز واما الحكومات فتصدر ما تشاء من الاوامر والنواهي فلا تلقى معارضاً . لا تستطيع ان تقول لاحد ما اسمك وكم عمرك وما صناعتك وما مذهبك ولكن الحكومات لا تدع احداً يدخل بلادها او يخرج منها ولو من ابنائها الاّ بعد ان يجيب على كل تلك الاسئلة . تركب الترام او السكة الحديدية فلا تلبث ان يجيئك المفتش ويسألك عن تذكرتك كأنهُ يقول لك انك موضع شبهة فتبرزها لهُ فيعطيها بالتمزيق او الثقب كأنهُ يقول لك اننا نخشى ان تستعملها مرة ثانية فتمسح تلك الاهانة بجلدك الى غير ذلك مما لا يسعنا استقصاؤهُ

اذا كان ذلك كذلك افلا يصح ان يقال ان كل امة تكون لها حكومة تسجل على نفسها الانحطاط وان كل حكومة تكون امتها منحطة كان ذلك دليلاً على انها لا تستطيع الاصلاح او انها لا تريدهُ وان كل مدنية قائمة على الوسائط لا المبادىء لمدينة فارغة لا تصلح ان تكون المثل الاعلى. وما احرى الناس ولاسيما الشرقيين منهم ان يفتشوا عن اسلوب آخر

خليل السكاكيني